وليلاً، وينالون من أعدائهم كل ساعة نيلاً، عزماً منهم عليها في دفع ضررها، ورفع شرها الذي استشرى فيها، من أول عام ستة وأربعين وخمس مائة إلى آخر عام ثلاثة وستين وخمس مائة باجتماع الفسقة في داخلها من أصناف الدايرين من أهل الشَّرف والسرف بالفسق والعصيان، وإذاية المسلمين في البر والبحر من كل البلدان، فكانت شجىً على أهل العدوة والأندلس في نهْب أموال المسافرين والتُّجار في البراري والبحار. وقد كان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أيام إمارته العزيزة بإشبيلية نَازَلَها مرتين فعصت عليه، وامتنعت بفساقها لديه، حتى فتحها الله لو في خلافته بسعده ويمنه [230] عقب شهر ذي القعدة من السنة المؤرخة بعد ما كان إبعاد النجعة في نيلها، واليأس من إصباح ليلها، فيسرها الله تعالى بيمن أمير المؤمنين إذْ لكل أجلٍ كتاب، ولتمام المواعيد أقدار محتومة وأسباب، فسر أمير المؤمنين بارتفاع شغبها، وانقطاع نفاقها الطائل في السنين ونوبها، وقد شرحت حالها ومن نافق داخلها في (تاريخ المريدين).

(التجاء فرنانده للموحدين ومقامه مكرماً بمدينة مراكش)

وفي هذه السنة أيضاً سنة ثلاث المؤرخة وصل فرنانده [1] رايس النصراني - صاحب ترجالة [2] الشهير النسب والشهامة عند النصارى - أهلكهم الله - صهر أدفونش السليطن [3] صاحب طليطلة - فتحها الله - إلى

(1) فرنانده (Fernando Rodriguez) وقد ثبت في المخطوط بعد اسم فرنانده كلمة رايس ولعلها تحريف عن «روكيز» تتمة الكلمة الثانية، وقد أغفل ويسي الكلمة نهائياً.
Huici p. 234.

(2) ترجالة (Trujillo): تقع غرب طليطلة في الشَّمال الشرقي من بطليوس وفي الجنوب الشرقي من قاصرش. يقول الحميري أنه حصن منيع ذو أسوار وأسواق.
الروض المعطار ص 63 - الحلل السندسية أول ص 100.

(3) اذفونش السُلَيْطن صاحب طليطلة هو بالذات الامبراطور الفونسو السابع صاحب طليطلة عاصمة قشتالة: (Alfonso VII cl Emperador) وهو الذي يحمل اسم رموندس، وقد نقلت المصادر المسيحية أنه توفي في مضيق موردال (Muradal) في 21 غشت سنة 1157 (13 رجب 552) على أثر اشتباك مع الموحدين إلا أن هذه المصادر تتردد في سبب وفاته هل انها كانت تأثراً من الجراح =

إشبيلية - حرسها الله - في شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة بنفسه وإخوته راغباً أن يكون خديماً لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيدهم الله - منابذاً لشيعته الكافرين، فاستأذن له الموحدون الذين بإشبيلية حضرة أمير المؤمنين بمراكش - أدام الله علاها - فأذن له في الوصول، فمشى إليها بأصحابه وإخوته الواصلين معه، وأقام في الحضرة العلية خمسة أشهر تحت إحسان من الأمر العالي وامتنان وعطاء جزيل، وإسكان كفيل، وألّف قلبه بالأنعام الحفيل، حتى كاد أن يسلم، وعاهد الله في نصح الأمر بالخدمة المجدة واستسلم، وضمن عن نفسه عن [1] ثغور بلاد الموحدين، وأن يكون [231] رِدْءاً لهم حليفاً للمسلمين، فانصرف تحت هذا الإحسان، والصلح التام منه بالإيمان، وأمر له الأمر العالي - أدامه الله وخلده - بمواساته إخوته وأصحابه مع الموحدين - أعزهم الله - في كل شهر فكان ذلك.

= التي نالته أم أنها موت طبيعي، وتؤكد المصادر العربية وفاة الفونسو السابع الذي تسميه «السُلَيْطن» بهذا التاريخ، فقد احتفظ لنا التاريخ برسالة موحدية بليغة من إنشاء أبي عقيل عطية بن عطية تخبر بفتح المرية وبياسة وأبذة وموت السليطن وحررت هذه الرسالة في العشر الأول من شعبان 552 ستنبر 1157، لكنها أي المصادر العربية تؤكد أنه مات متأثراً لجراحه.
ابن عذاري 65 - ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص 331 - بروفنصال رسائل موحدية ص 81 - 71. اشباخ: تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ص 231 - 255 - 258.
Huici Historia Politica page 179 - 138 - 234.
راجع التعليق رقم 3 ص 97 وراجع التعليق رقم 3 ص 153.
Dozy: Recherches 115.
Melchor Antunà: una version arabe comendiada de la Estoria de Espana de Alfonso el sobio.

(1) لعل لفظة عن زائدة.

(طلب فرنانده الببوج مهادنة الموحدين)

وفي هذه السنة أيضاً تابعه بالصلح صهره فرنانده الببوج[1] بن أدفونش المعروفِ بالسُّلَيطن[2] صاحب السبطاط[3] بعد ابتنائه لها[4]، ورغب في المهادنة وأن يكون مع الموحدين أيدهم الله - وعوناً لهم بعسكره على أعْدائهم، وذكر أن بينه وبين القمط نونه[5] ظِئر[6] ابن أخيه أدفونش الصغير[7]

---

(1) راجع التعليق رقم 3 ص 97 ورقم 3 ص 153 ورقم 1 صفحة 284.

(2) السُّلَيطن نعت لأذفونش، وقد علمت أن السليطن وهو الفونسو السابع توفي في 13 رجب 552.

(3) صاحب السبطاط ينبغي قراءته بالرفع نعتاً ثانياً لفرنانده الببوج، وجول السبطاط راجع التعليق رقم 4 ص 153.

(4) لعله يريد بعد ابتنائه لمدينة السبطاط.

(5) يعني به القمط نونيه بيرير دولارا (Nuno Perez de Lara)، ويذكر التاريخ أن القيصر الفونسو السّابع (ريمندس) خلف من البنين صانشو الثالث وهو أكبر أولاده وكان ملكاً على طليطلة كما ترك فرنانده الثاني (الببوج) الذي كان ملكاً على ليون، وقد كان شانسو الثالث رشح في حياته طفلَه الصغير للحكم، ولكنه عوض أن يسند النيابة في الحكم لعم الطفل فرنانده (الببوج) جعلها لسليل من أسرة كاسترو، فحنقت أسرة دي لارا، والتجأت إلى عمه ليحمي ابن أخيه، وبالفعل احتل العم معظم قشتالة وأعلن توليه الوصاية على ابن أخيه سنة 554 (1159) لكنه كان شديداً في معاملة آ لارا، إذْ كان - في الحقيقة - يقصد إلى انتزاع الحكم من ابن أخيه... وهكذا طلب اليهم تسليم طليطلة عاصمة قشتالة.... ثم اتفق - حقنا للدماء - على تسليم الملك الطفل لأسرة لارا... لكن حرباً جديدة نشبت، هلك في أثنائها المانريش دي لارا سنة 560 (1164) وهنا أعلن أخوه (القمط) نونيه عن نفسه كوصي على عرش قشتالة واستولت أسرة لارا عنوةً على العاصمة ونادت بالملك الطفل el Rey chico وهو ابن إحدى عشرة سنة، وذلك في عام 562 - فالتجأ فرنانده (الببوج) إلى طَرْق أبواب الموحدين وغير الموحدين من أعداء قشتالة لمحاربة ابن أخيه، وإخضاع نونه. أشباخ: ص 271.

O L A G U E: Histoire d'Espagne page 160 - 169.

(6) كذا في الأصل وهو نعتٌ للقمط وفي ابن عذاري ظهير. وقد استعمل ابن خلدون هذا اللفظ كذلك والمعنى حليف ونصير. انظر صفحة 103 من ابن عذاري وابن خلدون سادس 781.

(7) لفظ الصغير هنا في محله فنحن نعلم أنه بالفعل كان طفلاً، ولا يلتبسً وصف الصغير بوصف «السليطن» الذي هو جدّه: الفونس السابع، هذا وإن هذا الصغير هو الذي سيحمل لقب الفونسو الثامن وهو الذي ملك نحواً من ثلاث وخمسين سنة. ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص 331. راجع التعليق رقم 3 ص 284.

Huici page 178 .- 179.

صاحب طليطلة - خرّبها الله - فتنة ملتحمة على منازعة ملكهم، وأكد الرغبة - مع صلحه - في عسكر من عساكر الموحدين - أعزهم الله - يبعث به إليه إلى مدينته بالسبطاط، ليقاتل بهم نونه القمط المنازع له عن ابن أخيه في بلاده، فأمر له أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين - رضي الله عنه - بعسكر إشبيلية، فمشى عليه مقدماً الشيخ الناصح الموحد أبو العلا بن عزون، والحافظ أبو علي بن تمصيلت[1]، والحافظ أبو عمران موسى بن حمو، ووصلوا إليه بالعسكر المؤيّد إلى بلاده وقاتلوا أعداءه ببلاد قشتيلة[2] ووصلوا إلى أقصى نظره ببلدة أشتريش[3]، وغزوا من حاربه، وسالموا من سالمه، وأقاموا عنده [232] في هذه الغزوة خمسة أشهر، ثم انصرفوا عنه سالمين مأجورين، وقد اغتبط بنصرهم، وارتبط للصلح الذي ربطه بأمرهم، ووادعوه أنه متى سمع بعدو من النصارى يطرق بلاد أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بغدر أو مكر أن يكون لذلك العدو معهم دافعاً، وحامياً لحماهم مَانِعاً، ويظهر من البدار ما يحوز به في ملته الوفاء في مذاكرة الأخبار، فأجاب إلى ذلك، وحلف في بيعة بلده بالإيمان من دينه هنالك؛ فوفّى بما عاهد، وربط بإيمانه ولسانه وعاقد، ووصل بعسكره إلى مدينة بطليوس وقاتل فيهم صهره ابن الرنك[4] - لعنه الله - حين تملكها بغدر جرانده[5] اللعين وهزمه في داخلها وأخرجه عنها

---

(1) الحافظ ابن تيمصيلت من كبار قواد الموحدين، وقد ظل متنقلاً بين الأندلس والحضرة العلية في خدمة الدولة، ثم نصب والياً على مدينة باجة سنة 570 بعد أن رممت المدينة، وقد أسر صحبة ابن وزير واسْتشهد وهو يرسف في قيوده واغلاله سنة 574.

(2) قشتيلة (Castilla) وكما ترسم على نحو ما فعل ابن صاحب الصلاة فإنها ترسم هكذا قشتالة وقشتيلية وربما رسمت قشتلة، ويحددها الحميري قائلاً: ما خلف الجبل المسمى بالشّارات (شمال طليطلة وجنوب شقوبية) من جهة الجنوب يسمى إشبانيا، وما خلفه من جهة الشمال يسمى قشتالة. ويفصل بين أجزائها نهر دويرو (Duero). الروض المعطار ص 161 تعليق بروفنصال ص 193 (بالفرنسية) انظر الخريطة.

(3) استريش: (Asturias) تقع شمال قشتالة القديمة وشمال ليون. خريطة بروفنصال في الروض المعطار.

(4) انظر التعليق رقم 1 ص 96 .

(5) راجع التعليق رقم 2 ص 274.

حسب ما أذكره بعد هذا إن شاء الله، وكان فعله لطفاً من الله تعالى.

ذكر الأحداث من غدر العلج الجليقي جرانده لعنه الله البلاد والحصون بالغرب[1] والجوف[2]

قال المسعودي في كتابه المسمَّى بمروج الذهب ومعادن الجوهر، في ذكره لأصناف الروم: «وأشد ما على أهل الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلالقة على أن الافرنج حرب لهم غير أن الجلالقة أشد[3] بأساً». وكان ادفونش بن الرَّنك الغادر الجليقي [233] صاحب قلمرية[4] لعنه الله قد عاين من نجدة هذا الكلب جرانده[5] وتيقظه لغدر البلاد والحصون ما أعانه على ذلك برجاله، وسلَّطه على المسلمين في الثغور بأوجاله، فكان الكلب يتسلل في الليالي الممطرة الحالكة المظلمة الشديدة الريح والثلج إلى البلاد، وقد أعدَّ آلات من السلالم من أطول العيدان تعلو سور المدينة التي يؤم ويروم، فإذا نام السامر المسلم في برج المدينة، أَلقى تلك السلالم إلى جانب البرج، ورقي عليها بنفسه أولاً إلى البرج وتقبَّض على السامر، وقال له: «تكلَّم على ما كانت عادتك ليلاً يتشعَّر الناس به» فإذا استوفى طلوع جملته الذميمة في

(1) انظر التعليق رقم 3 صفحة 94. غرب الأندلس البرتغال الحالية.
(2) يعني الأقدمون بالجوف الناحية المقابلة للقبلة فهناك شرق وغرب، وهناك جنوب يعبر عنه بالقبلة وشمال يعبر عنه بالجوف.
القرطاس أول طبعة الرباط ص 79 - 84 - 86.
ابن الخطيب: اللمحة البدرية 1947 - 12.
(3) ساق ابن صاحب الصلاة نص المسعودي بالحرف الواحد باستثناء تغيير يسير في بعض الألفاظ، فقد كانت عبارة المسعودي، الأمم المجاورة وليس المحاربة وعوض الافرنج عبر بالافرنجة... المسعودي الباب الخامس والثلاثون، ذكر الافرنجة والجلالقة وملوكها وما يتصل بذلك، نشر دومينا رودوكورتي ص 72. نفح الطيب. المقري ثان مادة الجلالقة ص 145- 147.
(4) راجع التعليق رقم 1 ص 96 والتعليق رقم 2 ص 153.
(5) راجع التعليق رقم 5 ص 436.

أعلى سور المدينة صاحوا بلغاتهم صيحة عظيمة منكرة، ودخلوا المدينة وقتلوا من وجدوه واستلبوه، وأخذوا كل من فيها سبْياً وفيئاً. وقد كان النصارى أهل شنترين ـ أهلكهم الله ـ غدروا مدينة باجة[1] ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة الموافقة أول ليلة[2] دجنبر، من عام سبعة وخمسين وخمس مائة، سكنوها أربعة أشهر وثمانية أيام، ثم هدموا أسوارها وأقفروها وغدر جرانده ـ لعنه الله ـ أولاً من غدراته مدينة ترجالة في شهر جمادى الأخيرة عام ستين وخمس مائة، ثم غدر مدينة يابرة[3] في شهر ذي القعدة من عام ستين وخمس مائة وباعها من النصارى ـ أهلكهم الله ـ، وغدر مدينة [234] قاصرش[4] في صفر عام واحد وستين وخمس مائة، وغدر أيضاً حصن منتانجش[5] في جمادى الأولى من عام واحد وستين المؤرخ، ثم غدر حصن شيربة[6] في عقب جمادى الأول عام واحد وستين المؤرخ أيضاً، ثم غدر حصن جلمانية[7] على مقربة من بطليوس ومسكنه بجملته الذميمة يفاتن منه بطليوس، يؤذي

(1) باجة (BEJA) مدينة بالبرتغال تبعد عن لشبونة بـ 154 ك. م جنوبها، وهي من أقدم مدن الأندلس بنياناً وأولها اختطاطاً، منها أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف شارح الموطا، وإليها ينتسب عبد الملك بن صاحب الصلاة أنظر ص 13 من هذا الكتاب الروض المعطار: 36 - 37.
الفاسي: البينة يوليه 1162 صفحة 21.
(2) كان السبت حسب جداول كاطنوز يوم 21 من ذي الحجة وهو فعلاً يوافق فاتح دجنبر 1162.
(3) يابرة (Evora) تقعُ شمال باجة وهي مدينة قديمة إليها ينسب ابن عبدون اليابري الشاعر، وقد وردت في قصيدة عيسى ابن الوكيل التي مدح بها علياً ابن القاسم بن محمد بن عشرة قاضي سلا في قوله:

غريب بأرض الغرب فُرّق قلبُه — فآوت سلا فرقاً ويابرة فرقاً!

الروض المعطار 187 - 198.
(4) قاصرش (Caceres) يقع في شمال بطليوس، أنظر الحلل السندسية جزء أول ص 100.
Huici: p. 232.
(5) منتاجش (Montanchez) يقع شمال بطليوس وجنوب قاصرش وإليها ينسب أحمد بن محرز المتانجشي. الصلة: نشر بروفنصال ص 25. التكملة 1955 رقم 74.
(6) حصن شيربة (Serpa) ويقع جنوب بطليوس.
(7) (Jurumena) يقع أيضاً جنوب بطليوس ولكنه أقرب من شيربة، شمالي مدينة يابرة.

المسلمين فيهـا، حتى مكن الله سيف أمير المؤمنين بن أميـر المؤمنين منه على ما أذكره بعد هذا في موضع ذكره. ثم غدر مدينة بطليوس.

ذكر غيرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه لله وللدين العاجلة بالنظر لحماية المسلمين على العموم بتجهيز عساكر الموحدين أعزهم الله وبعثهم الى جزيرة الأندلس في حمايتها من صنفي المنافقين المحاربين والكافرين.

قال الراوية: وان أمير المؤمنين خلَّد الله أمره، وأبقى على الأيام فخره، تـأثَّر وغـارَ لله تعالى، وجـرد نظره العـزيز لغـوث الأندلس والانتـواء لنصـرتهـا وحمـايتها، وقصـد العمل في ذلـك من الجهاد لله عـزَّ وجـل في نفسـه قصـد المبـاشرة والمشـاهدة، إشْفـاقاً على المسلمين ودفـاعـاً عن الـدِّين، حين رأى العدو قد [235] فغَر عليها فماً، وأسال دموع أهلها دماً، حسب ما أذكره.

سنة أربع وستين وخمس مائة(1)

في أولها هدأت الفتن في العـدوة وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب ورخصت الأسعـار، ودانت الأوطار، وانقـطعت فتنـة الضـلَّال الجهَّـال، أهـل الجبال، وتابـوا وأنابـوا، ودُعوا للجهـاد فأجـابوا، وعـاينوا الآيـات البينات من لطائف الله تعالى بنَصْره المبين، ووصول النصارى الكافرين راغبين في الصلح والخدمة بـأنفسهم ضارعين طـائعين، فصفت لأمير المؤمنين بن أميـر المؤمنين رضي الله عنـه مشاربُ هـذه الجبال من الفتن، وغسـل الأمـر العـزيـز والقهـر

(1) بالرغم من أن ابن صاحب الصلاة دأبَ على تبويب الأحداث هكذا على طريقة السنوايات فقد ساق بعض الأخبار مما جرى سنة 564 - 565 - 566 - 567 - 568 - 569. قبل هـذا التاريخ انظر صفحات 150 - 151 - 152.

بـطاعتها ثيـابها من دنس النفـاق والـدَّرَن، فنـظر - خلد الله ذكـره في الخلفـاء المـرضيين الـراشـدين المهتـدين - في بعْث عسكـر مبـارك شهم اختـاره من الموحدين - أعزَّهم الله - وميزهم، ووجّهـه صحبة الشيـخ الأجل المـرحوم أبي حفص عمر بن يحيى إلى قرطبة لحماية الأندلس، تقـدمةً لمـا أمله في نفسه - رضي الله عنـه - من جـواز الموحِّـدين معـه، فكـان هـذا الجيش أيمنَ جيش، أظهـر على قلوب المنـافقين والكـافـرين من الـروع أعـظم طيش، ونغَّص من لـذَّات عيشهم أسوأ عيش، وتيمَّن أهـل الأندلس بـوصـولـه [236] وحُلولـه، وكتب إلى أهل الأندلس هذه الرسالة الكريمة المعربة عنه بوعد نصره، ونـظره العزيز وأمْره.

حدَّثني أبو محمد سيد رأي بن وزير قال: كان السببُ في تعجيل حركة الشيخ المرحوم أبي حفص إلى الأندلس بالعسكر المبارك من حضرة مراكش، وصول الخبر بغدر اللعين جرانده الجليقي بطليوس، وتملُّك ابن الرنـك الغادر صاحب قلمرية لها، وحصر الموحدين الذين فيهـا قصبتها، مـع حافـظهم أبي علي عمـر بن تمصيلت، وذلـك في شهـر رجب الفرد من عـام أربعـة وستين وخمس مـائـة المؤرخ بـه، وأنهم في ضيقـة من الحصـار، وتحت أجـل من الكفـار، فأمـر أمير المؤمنين بن أميـر المؤمنين رضي الله عنه بضـرْب الـطبـول والخـروج، وركب بنفسـه من فـوره غـازيـاً، وخـرج من مـراكش ونـزل في تانسفت(1) على مقربة من مراكش عازماً على الغـزو إلى الأندلس، وأقـام فيها ثلاثة أيام على هذه النية، فاجتمع رأي الموحّدين - أعزهم الله - على أن يتقدم

(1) تـانسيفت: نهرٌ عظيم من أنهار المغرب تسقي مياهـه حوز مـراكش في طريقـه إلى مصبـه بـالمحيط الأطلسي بـين آسفي والصويـرة يبلغ طولـه نحو 250 كلم. ويصف الادريسي هـذا النهر بـالعبـارة الآتية «وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر لها يسمى تانسيفت وليس بالكبير ولكنه دائم الجري، وإذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقي ولا يذر».

الادريسي: المغرب والسـودان ومصر والأنـدلس ص 69 نشر وتـرجمـة دوزي. ودي خـويـه ليـدن 1866.

الصديق ابن العربي: كتاب المغرب ص 80: الطبعة الثانية.

الشيخ المرحوم أبو حفص بالعسكر المبارك، على ما ذكر في الرسالة وشرح فيها من الأحوال، المعربة عن الآمال، فكان انصراف أمير المؤمنين وتقدّم الشيخ على ما ذُكر، وهذا نص الرسالة الكريمة من إنشاء أبي الحسن بن عياش، وكانت الحركة منه في شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين [237] وخَمْس مائة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلَّى الله على محمَّد وآله وسلم والحمد لله وحده مِنْ أميرِ المؤمنين بن أمير المؤمنين أيَّدَه الله بنصرِه، وأمدَّه بمعونتِه، إلى الطلبة الموحدين من الذين بجزيرة الأندلس، أدام الله توفيقهم وكرامتهم. سلامٌ عليكُم ورحمةُ الله تعالى وبركاته، أمَّا بعد، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلّي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم القاضي بأمْرِ الله تعالى والداعي إلى سبيله، ونوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفتِه الإمام أمير المؤمنين مُمْشي أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله، وإنا كتبناه إليكم - وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه - من حضرة مراكش - حرسها الله - والذي نُوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه. وهذا الأمرُ العزيزُ بما وعدَه الله من النَّصْر، وضَمِنَ لهُ من التأييد، وتكفَّل له من التمكين، وأراد من تبسُّطِه وامتِداد غلوائه، واتصال مِضماره، وخُلوصه إلى كافَّة الأرْجاء، وتغَلغُلِه في كلِّ الأنحاء، لإكمالِ دِينه، وإتمامِ نوره، وبثِّ دعوتِه، وتصديق دعوته لا تزالُ مَوا... [1] الحافظَةُ لصُورِه، المبقيةُ لأثَرِه، المُثْبتةُ لأركانِه الممكِّنة لقواعده، تُشِيع [238] من الأسبابِ المقويَة واللطائف المنهِضة، والمعاني المعينَة عَلَى سَريَانِه، المزعِجة لتسربه وجريانه، بما يُؤذِن له بانجازِ مَوعوداتِه، وتَتبُّعِ مَضموناتِه، حتى يستولي على مَداه الذي لا غايَة بَعدَه، ويقفُ على مُنتهاهُ الذي لا مَطلع وراءَه، يَقيناً اطمأنت بمقدِّمات العِلمِ به القلوب، وقرَّت عَلى ظُهور براهينِه النفوس، وعضَّدته الآيات البيِّنة، ونطقت

(1) هنا كشط قد يقرأ هكذا (مواده).

به الآثارُ المفصِحة، وناقدتْ[1] شواهد أحواله لمن ألقَى السَّمْعَ وهو شهيد، وما زِلنا وفَّقَكم الله على إتمام العِنايةِ بتلكُمُ الجزيرةِ مهَّدَها الله، والحِرْصِ على عَونِها، والانتِواءِ لنُصرتِها، والعملِ على قَصْد ذلك بالمباشَرة والمشاهدة، إشفاقاً على ما استضام منها، جيرتها الأعداء، وأبناؤها الأعِقَّاء، مُجَسِّمين وروماً وما كادُوها به منَ التكلُّفِ والتحيُّف والتَّنقُّص وفَغْرِ الأفواه، وكشْر النُّيوب والإرصاد لفيضِ ما فاضَ فيها من نورِ التوحيد، وخفض ما نصب من أعلام هذا الأمر، والمناصبة للمنحاشين إليه، المتعلقين بأسبابه، المستذمِّين بذِمَّتِه، ممن صَحَّ ولاؤه، وصدَقت طاعَتُه وخلُص على السَّبكِ، ونَصَع على السَّبْر، ونجعل لها من الفكر حظّاً يَستحق الصَّدر، على ما سِواها[2] مِنَ الأفكار، ويأخذُ السَّبْقَ على غيره من معْنيات الأمور، ونراه مِنَ الأهمِّ [239] الأعنَى، والأوّل الأولَى، قياماً بحقّ الله في جهاد أعدائها ومكابري مناويها[3]، ومَن لمْ تنفعه العِبَر على مُرُورها عَلَى بَصَرِه، وتوارُدِها عَلَى مشاهَدَتِه وإهابتِها به، ولم يَرْعَ سمْعاً دعوةَ الحقّ الَّتي ملات الخافِقَيْن وقَرَعَ صَوتُها مسامعَ الثَّقلين، ونمكّن أسبابَ التفرُّغ لِذَلك، والتوسُّع فيه والنَّظَر في أحْكامِه، فتَعْترض مِنْ أهْل هَذه المغارب شَوَاغِبُ يُثِيرُها الجُهَّال، ويَبْعَثُها النَّعَقةُ الضُّلَّال، فلا يَسَعُ إهمالُها ولا يَسُوغ الإضْرَاب عنها، قياماً بحقِّ الدِّين، وتوقّياً من اسْتِشْرَاءِ الشرّ، وتوفّر اسْباب الفِتْنَة، فينصرِفُ إليْها من الالتفات والقصْد لِحَسْمِ عِلَلِها وإبْراءِ أدْوَائِها، ما يُقْشع غيابَاتِها ويُظَهّرُ اقذاءها، ويُفضِي إلى المقصود الأول من التفرُّغ للجزيرة - مهَّدها الله - والتوطئة لأمرها. وما فتِيء الاشتغالُ بهَذَا الغَرْبِ يلظ بأرْجائِه، ويشتمل على جَوانبه ويتخلَّل زَواياه، وينظّم أوْعاره وسهولَه، حتَّى صفَّى الله مشاربَه، وخلَّص من الشَّوْب مَشارِعَه، ووقَف بأهْل الانتزاءِ من أصْناف مشاغبيه على تايبٍ أنابَ بقَلْبِه، ونَدِمِ على ما فرط من ذَنبِه، وعَلى شقيّ تمادَى في غُلَوائهْ. ولجّ في تمرُّدِه،

(1) كذا في الأصل ويظهر أنه تحريف من (ناقلت).
(2) هنا سطر مكرر في أصل المخطوط ابتداءً من «ونصع».
(3) يوجد كشط أول الكلمة، ولعل الأصل مناويها.

فولى كلّ ما استحق، وسيم خطّة ما رضي، ووجد التايب برد الأمان، وتبوأ كنف الإحسان، وحقّت على العاصي كلمة العذاب، وأخذه التباب، والصيرورة إلى سوء المآل وشرّ المثاب، وما ربّك [240] بظلام للعبيد، ولمّا تولّى الله هذه الجهات منّة التمهيد، وبسط لها نعمة التسكين والتوطيد، انعطف النظر إلى محلّ مثاره، وسال سيل الاعتناء إلى قراره، وتوجّه حفل الاشتغال إلى الجزيرة - مهّدها الله - وتوفّرت دواعي الاستعداد لنصرتها وجهاد عدوّها، ورأينا في أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميمّنة المباشر أن نقدّم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين - أعانهم الله - صحبة الشيخ الأجلّ أبي حفص - أعزه الله - يكون تقدمة لجواز جمهور الموحدين ومؤذناً بما عزمنا عليه - والله المستعان - من التحرك بجملة أهل التوحيد والقصد لهذا الغزو الميمون الذي جعلناه نصب العين، وتجاه الخاطر! فتتعاونون مع اخوانكم، الواصلين على بركة الله إليكم، على جهاد أعدائكم إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم، ويلمّ بكم هذا القصد، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها، المبرمة أمراسها التي انعقدت بها النيّة، واحتدمت لها في ذات الله الحمية، واستعانت بتوفيق الله في تأصيل أصولها الفكرة الموجّهة والرّوية، وإنا لنرجوا من المبلّغ لآمال القلوب، المتفضّل بإدراك كلّ مطلوب، أن يهب فيها من العون ما يتمّم مبدأها، ويكمل منشأها، وتشفى به صدور اوليائه بالنقمة في أعدائه، وان فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنيّة، والإطلال منها [241] على كل شرف وثنية وما ذلك على الله بعزيز، وإذا طالعتم - وفقكم الله - هذه الأنباء واستعلمتم ما في ضمنها من البشائر وعنوانات الفتوح وآثار هذه القصود، وحملتم ذلك على الثقة بما وعد الله هذا الأمر والتلفت إلى ما عوّده، رأيتموها نعمى تخوّلتكم، ورحمى انتحتكم وأتتكم وشرحتم لها صدوركم وعمّرتم بها أحناءكم وشغلتم بها مشاهدكم وسررتم بها غايبكم وشاهدكم، وأذعتموها إذاعة تثلج بها صدور الأولياء، وتحرج منها صدور الأعداء، ويكون للمؤمن منها مطلع أمل، وللكافر مطلع هول ووجل، وعرّفكم الله شكر النعمة بها، وأعانكم على أداء واجبها، وبلّغكم الفايدة الجميلة منها، بمنّه ويمنه، وإذا

وصلكم هذا الكتاب فأشيعوه قراءة على من حضركم من أصناف الناس، وإرسالاً بنسخه إلى من نأى عنكم، حتّى يجد أثر الاستبشار به ويترقّب بمودعه الغائب والشاهد، والحاضر والبادي إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مائة.

(تحرير بطليوس بمساعدة فرنانده)

وكان من يمن هذا العسكر - المبارك أنه لما وصل إشبيلية سالماً صحبة الشيخ المرحوم أبي حفص، بينما هو عازم على الحركة لغوث المسلمين، ودفاع العدو الغادر ابن الرنك - لعنه الله - [242] عن غلبته على مدينة بطليوس، وحمايته للموحدين المحصورين بقصبتها، وهو قد أعدّ واستعدّ لذلك، وإذا البشير قد وصل معلماً - بلطف الله وتأييده لهذا الأمر العزيز - بأن فرنانده المعروف بالببوج بن أذفونش السليطن[1] صاحب مدينة السبطاط وآبلة[2] وليون[3] وسمورة[4] فقد وصل بجمعه وحفله من الخيل والرجل حامياً للمسلمين دافعاً لصنفه الكافرين[5] عن مدينة بطليوس طاعة منه إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، رضي الله عنه بلطف الله تعالى. وقال: إنه لما وصل إلى مقربة من بطليوس وجّه منها رسوله إلى الحافظ أبي علي عمر بن

(1) غير خاف أن (السليطن) نعت لأذفونش لا لفرنانده وهو فعلاً والده. راجع التعليق رقم 3 ص 284 ورقم 5 ص 286.

(2) ابلة (Avilla) وتقع شمالي مدريد الغربي بينهما 113 ك.م، وإليها ينسب الابلي شيخ ابن خلدون المتوفى سنة 757، الفاسي (البينة يولية 1962).

(3) ليون (Léon) تقع شمال سمورة وهي قاعدة من قواعد قشتالة. الروض المعطار ص 174.

(4) سمورة (Zamora) وتقع أيضاً في شمال الأندلس جنوب مدينة استريش وهي دار مملكة الخلافة على ضفّة نهر دورو. الروض المعطار ص 98 - 99.

(5) ورد في عبارة المؤرخ الالماني يوسف أشباخ ما نصه: «واتيح عندئذ للمسلمين المنهزمين أن يشهدوا منظراً غريباً هو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكين نصرانيين من أجل الاستيلاء على المدينة» انظر تاريخ الأندلس لأشباخ ترجمة عبد الله عنان الطبعة الثانية ص 280.

تيمصلت المحصور بالقصبة مع الموحدين، وأهل المدينة من الناس الأندلسيين يقول لهم «أثبتوا، فإني واصل لكم عدوكم عنكم، وانظروا في معاونتي كيف أدخل عليكم» فنقب الحافظ باباً في سور قصبة بطليوس من جهة خفية لا يعلمها النصارى أصحاب ابن الرنك لعنهم الله، فلما تحققوا وصول فرنانده الببوج ومناشبة الحرب بينه وبين ابن الرنك فتحوا ذلك النقب، وخرجوا بجمعهم منه إلى بابٍ قريب من أبواب المدينة وفتحوه، وأدخلوا منه عسكر فرنانده المذكور وهو معهم على ابن الرنك وعسكره، فتقاتلوا في المدينة بداخلها مع النصارى، والموحدون المحصورون يعينون أصحاب فرنانده [243] المذكورين، وهو قد سوُّوا صفوفهم ولبسوا الدروع المحكمات، وائتلقت على رؤوسهم البَيْضات، وحصنت أعضادهم السواعد والساقات، ورأى ابن الرنك - لعنه الله - مع عسكره الذميم من تصميم الموحدين المؤمنين وأصحابهم في قصدهم، والإقدام عليهم وتوطينهم الأنفس على قراعهم، وصدْقهم، ما أيْأسه عن الحياة وعن بطليوس، وأصحاب فرنانده الببوج مجدون مع المسلمين على عسكر ابن الرنك حتى هزمهم الله تعالى بيُمن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وفرَّ ابن الرنك اللعين مدبراً مهزوماً، فلما أراد الخروج من باب مدينة بطليوس وهو مزعوج، وفي شدائد الخوف مدروج، كان عمود باب المدينة ممدوداً، وقد أعدَّه الله تعالى أن يكون من جنده معدوداً، فانضغط اللعين ابن الرنك في الخروج، والاستعجال بالفرار والنُّهوج، فكسر عمود الباب فخذه اليُمني، وسقط في الموضع مغشياً عليه، فاحتمله الكفرة أصحابه إلى الموضع المعروف بقاية[1] على قرب من بطليوس، فاتبعه قواد فرنانده الببوج المذكور، واستاقوه أسيراً إليه، وقيَّده في الحديد، ثم أطلقه برغبة النصارى وسرَّحه إلى قلمرية بلده مهزوماً ذميماً، ولم يركب من ذلك اليوم فرساً أبداً، إلى أن هلك لعنه الله وأدخله الله النار! وفرَّ جرانده الجليقي الغادر إلى موضعه [244] حتى مكَّن الله منه سيف أمير

(1) قاية (Caia) ويقع على مقربة من بطليوس غربيها.

المؤمنين بن أمير المؤمنين، على ما أذكره في موضعه بعد هذا[1] إن شاء الله تعالى، وفتح الله هذا الفتح العظيم الجسيم، وصرف بطليوس إلى الإسلام أحسن صرف، وكان في أمرها عناية من الله تعالى جلَّت عن النعت والوصف، ووفَّى فرنانده الببوج لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه فيما عاهده عليه وصدق في إيمانه، ورأى بعد ذلك من الإحسان والإنعام جزاءً على حسن عهده ما لم يتخيله في نفسه وما استغربه في زمانه، حسب ما أذكره بعد في موضعه إن شاء الله[2]. وأُسلم مدينة بطليوس للحافظ[3] عمر بن تمصيلت المذكور، ورغب له الحافظ أن يدخل القصبة ويراها فأبى له عن دخولها، وقال بكلامه العجمي: «إنما هي دار أمير المؤمنين ولا أدخلها إلا بأمره، وقد فعلت ما أوجب عهدي وربطي وودي!» وكان خروج النصارى عنها في الثاني والعشرين من شعبان المبارك من عام أربعة وستين المؤرخ. ونفَّل الله الموحدين المحصورين وأهل بطليوس إخوانهم أنفال[4] النصارى: ابن الرنك لعنه الله وأزوادهم التي كانوا استكثروا منها لطول ترددهم وإقامتهم في داخل المدينة المذكورة ما اقتاتوه مدة طويلة، وكذلك أُمتعتهم [245] وثيابهم، وولُّوا أدبارهم وقد أنزل الله بهم النقمة، وأَحلَّ بهم الدبرة، ووكل بهم الحسرة

(1) هذه إحالة من ابن صاحب الصلاة على السفر الثالث المفقود، وبفضل (البيان المغرب) نقف على ما يعِد به ابن صاحب الصلاة هنا: فلقد ورد جرانده هذا على اشبيلية مستسلماً، وقد ساء هذا رئيسَه ابنَ الرنك فأرسل إليه سراً في أن يتحيل للغدر. وعلم الموحدون بذلك فبعثوا به مقيداً إلى سلجماسة... ثم طمحت نفسه مرة أخرى للفرار من إحدى المراسي.. فقتل وحز رأسه. البيذق - 127 - ابن عذاري ص 94.

(2) كان فيما قدمه الخليفة للبابوج - بمناسبة مساعدته على إنقاذ بطليوس - هدايا ثمينة فيها (منت؟) منظوم بالجوهر... ولكنه أي الببوج - وهذا ما قد يكون تحدَّث به في السفر الثالث - نكث عهوده سنة 569 مما دفع بالموحدين لمهاجمته في عقر داره... البيان المغرب ص 95.

(3) يذكر المؤرخ أشباخ أن فرنانده هذا أقر - بعد النصر - حاكم المدينة المسلم (ابن حابل) على مدينة بطليوس، وقد ذكر الأستاذ عبد الله عنان أن اسم ابن حابل أو ابن هابل تحريف لاسم عربي لم تتضح حقيقته، قال ولعل الاسم الحقيقي هو ابن الحاج، لكن يتَّضح من نص ابن صاحب الصلاة ص 242 - 244 أنه تحريف لاسم (ابي علي) أو تحريف لكلمة «الحافظ» وهذا أقرب عندي. اشباخ ص 280 - 281.

(4) كذا في الاصل: النصارى ابن الرنك ولعل هنا كلمة ناقصة: أصحاب ابن الرنك.

والخيبة لا يلوي منهم الأخ على أخيه، ولا يعرج الابن على أبيه، والحمد لله على ذلك، وانصرف فرنانده بن أدفونش السليطن[1] المذكور إلى بلاده بأجناده سالماً موصوفاً عند المسلمين والنصارى بالوفاء، والانحياش إلى هذا الأمر العزيز والولاء، وقد ألقى الله بينه وبين ابن الرنك صهره العداوة والبغضاء، والفتنة المتصلة الشنعاء، والمقاطعة والشحناء، وأورثها الآباء منهم الأبناء.

وكتب الشيخ المرحوم أبو حفص إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بوصف هذا الفتح الإلاهي والبشر بالنصر المتناهي، فسر بذلك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين سروراً شكراً لله فيه على صنعه الأجمل، ولطفه الأكمل. وقال أبو عمر[2] بن حربون يمدح[3] أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ويهنئه على صنع الله له في ذلك: (طويل)

---

(1) راجع تعليق رقم 1 ص 295 والاحالات المذكورة فيه.

(2) يكنيه ابن عذاري أبا بكر ويذكر أنه حزمون بالزّاي ثم يسوق الأبيات الثلاثة وقد أثبت من نفس القصيدة أبياتاً أخرى ولكن في مناسبة تمت سنة ثلاثة وخمس مائة، ويكنيه في تلك المناسبة بأبي عمرو. ابن عذاري ص 63 - 70.

(3) كان في جملة من امتدح أمير المؤمنين بهذه المناسبة الشاعر أبو العباس الجراوي بقصيدة طويلة هذا مطلعها:

نصر بكل سعادة مقرُون ... نالتْ به الدنيا الهَنا والدين
تقديم من شهد الوجودُ بأنه ... ما زال بالتَّقديم فيه قمين

وهنا يحق السؤال عن السبب الذي من أجله أعرض ابن صاحب الصلاة عن إيراد القصيدة الجراوية مع أنه حريص فيما نعلم على استقصاء أبرز ما يقال من شعر، ونلاحظ أن هذه ليست المرة الأولى التي يتجاهل فيه شعر الجراوي، فقد أعرض عنه ابن صاحب الصلاة بمناسبة انتصار موحدي سنة ست وخمسين وخمسمائة يقول فيه في جملة ما يقول:

لو رَاءَ مُوسى ما فعلت وطارقُ ... زريا بما لَهُما من الآثارِ!
اتممت ما أمَّلوه ففاتهم ... من نصْر دين الواحدِ القهارِ!!

كما أعرض عنه في شعره له بمناسبة تحْقيق النصر في المهدية يقول فيه في جملة ما يقول:

إهنأ إمامَ الهُدَى فالعدلُ منبسط ... والدِّين منتظم والكفر أشْتَات!

كما فعل أيضاً في مرةٍ رابعة في لامية من جملة ما يقول فيها:

جَهِل النصارى أنه الملك الذي ... يرث البلاد وعذرُهم مقبول!

ولعل ما أثِر عن الجراوي من لسان سليط، كان من بواعث تجاهل ابن صاحب الصلاة للاثارة وإلاّ فكيف يفسر عدم اشتمال (المن بالإمامة) على أثرٍ من آثاره، ومن الغريب أن يجد الجراوي =

بسعدك أضْحى الدِّين جدلانَ باسِما ... وباسْمك أمْسَى الشركُ للشّرك هادِما
ألا إنَّها فيما وُعدت لآيةٌ ... يَدِين بِهَا من كان بالله عالِمَا
براهين صدقٍ ما تزالُ ولم تَزَلْ ... تُثَبِّتُ يَقْظاناً وتُوقظُ نائِمَا
[246] ألَيْسَ من الآياتِ أن بِتَّ وادعاً
وقيْصَرُ قد أمْسى لأمرك خَادِما؟
وَمَا هُوَ إلاَّ أَنْ دَعا بشِعَاركم ... فجدَّد مَن قد كان قِرْناً مُقاوما!
بِخُلْقِكُم المَيْمُونِ أدْرَك ثَارَهُ ... فإنْ لم يَجِئْكُم مُسْلِماً فمُسالِمَا!
وأيَّدَهُ المقدارُ فِيهَا بآيَةٍ ... تُرسِّمُ للأمْرِ العَزِيز مَراسِمَا!
كَمَا وَقَمُوا كِسْرَى بفَضْل محمَّدٍ ... وكانَ لَهُم مِن قَبْلِ ذلِكَ واقِما
فشُكْراً بَني إسْحَاقَ لِلمَلِكِ الَّذِي ... شفيتُم بهِ تلك الظماءَ الحَوَائِما
بيُمْنِ أميرِ المُؤمِنِينْ رفعْتُمُ ... لعزِّكُم تِلْكَ الذُّرَى والدَّعائِما
وكيف رأى ابنُ الرنكِ مركبَ بَغْيِهِ
إذا اعْتَاضَ من دُهْمِ الجِيَاد الأداهِمَا!
وان يتسنَّمْها محارم عزَّةٍ ... فهَا هُوَ قدْ لاقَى عَلَيْهَا المَحَارِمَا
لَقَدْ رَامَ مِنْهَا سُهدةً مَا اسْتَسَاغَهَا
ولا لاكَهَا حَتَّى اسْتَحَالتْ عَلاقِمَا
وَبَادَرَهَا لِلحِينِ وثْبَة هَاجِمٍ ... فصَادَفَ وثّاباً لمَبْنَاهُ هَاجِمَا!
فَسَعْدَكَ مَوْلاَنَا حَمِدْنَا، ولَمْ تَكُن
لتحمدَ هذي العربُ تِلْكَ الاعَاجِمَا!
وكَمْ مِنْ عَدّوٍ ردَّهُ يُمْنُ أمْرِكُمْ
عَلَى عَقِبَيْهِ صَاغِرَ القَدْرِ رَاغِمَا!

= نفس الاهمال من عبد الواحد المراكشي الذي لم يتنازل لترديد صدى شعره مع ما اشتمل عليه من آثارٍ أدبية لغير هذا الشاعر الهجاء الذي جالس عبد المؤمن وابنه يوسف وولده يعقوب، وألف له كتابه صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب المعروف بـ (الحماسة المغربية).
عبد الكريم ابن الحسني: ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية عدد 9 بتاريخ 9 يونيه 1938 - ص 133 وعدد 10 بتاريخ 16. محمد الفاسي، شاعر الخلافة الموحدية، ص 8 - 9، راجع التعليق رقم 1 ص 76 .

فـانـطقتم بِـالشُّكْـرِ مَنْ كـانَ مفحمَـاً　　وجلَّيْتُم بـالنُّـورُ مَن كـانَ فـاحِمَـا!
وانـــي لأرْجــو لِــلجَـزيـرةِ كَــرَّةً　　تُعِيــدُ عليْهـا عَهْـدَهـا المُتَقـادِمـا!
بَبـطْشـةِ غَيْـرانِ الحَفِيــظة مغضبٍ　　إن انتهـك الأعْـداءُ منهـا المَحارِمـا
ولــو أسْعَف المقــدارُ منكم بـزَوْرَةٍ　　لاحييْتُم تلك العِـظامَ الـرَّمـايِمـا
وجَـلَّيْتُـمُ عَـنْ أُفْـقِهـا بِسَنـاكُـمُ　　غَــواشيَ كُفْرٍ قــد أكبَّت غَـواشِمـا
وَلـوْلا الـذي نـرْجُـوهُ مِنْ بــركَـاتكُم　　أقــامَتْ على دِينِ النَّبي المَـآتِمَـا!
[247] وأنــت أمـيــنُ اللهِ تــجْـبُــرُ صَـدْعَـهـا
وإنْ قــالَ قَــوْمٌ إنَّــه قَــدْ تَــقَـادَمـا
وتُحيي رُسُــومَ التّــابعِينَ بــأرْضِهــا　　فهـا هي تسْتـدْعيـكَ غُبْـراً طَـواسِمـا
طُلولٌ بـذاك الثغر مـا انْفـكَّ هَـامُهـا　　عَلى البُعْدِ تسْتسقي القَنى واللَّهاذِمـا
وعـمَّـا قليـلٍ تَـجْلُبـون لِفَتْـحِهَـا　　شَــوازِبَ أمثـالَ السّهــام سَـواهِمـا
كتـائِب مـا تحْتــلُّ بِيْـداً مجـاهِـلاً　　مِنَ الأرْضِ إلاَّ غـادَرَتْهـا مَعَــالِمـا!
إذا مـا دَعَتْ قيْسٌ بـدعـوة هـاشِمٍ[1]　　ذَرَتْ مِنْ رِمـاح المُعْتَدين هَشـائِمـا!
بَنو المَلِك المَرْهُوب في الأرْض كلِّها　　وَمنْ مَـلأ الـدُّنيـا لُهىً ومَـلاحِمـا!
تَـلُوح عَلَيْـهـم مِـنـه آيُ مُشـابِـهٍ　　وهـل يلِدُ الضِّرْغـامُ إلاَّ ضـراغِمـا؟!
كــرامٌ لهُمْ في الجُـود أرْفَـعَ هِمَّـةٍ　　فمـا يَهُبـونَ المــالَ إلاَّ كَـرائِـمـا
إذا مَـا انَخْتَ العِيسَ في عَـرْصـاتِهم　　دَنَـوْتَ فصافحتَ العُـلا والمَكارِمـا!
هُمُ قيْسُ عَيْــلانَ[2] الــذِين تلبَّســوا　　بخُلْع الملوكِ السَّـاقيـاتِ القَـوائِمـا[3]

(1)هاشم بن عبد مناف أبو عبد المطلب جد النبي العربي عليه السلام.
(2)يرفع مؤرخو دولة الموحدين نسب بني عبد المؤمن إلى قيس بن عيلان (بالعين) ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهو ما نجد الشعراء يتواطأون عليه، بيد أن المحققين من المؤرخين لا يميلون إلى انتسابهم لقيس عيلان.
البيذق 21 البيان المغرب 36 ـ القرطاس جزء ثان ص 126 - 127 الحلل الموشية 117 ـ ابن خلدون السادس 187 - 258 ـ الاستقصا ثاني ص 89. محمد السائح، الغصن المهصور (مخطوط) ص 5.
راجع تعليق رقم 6 صفحة 173.
(3)لعل المعنى: أن عظماء قيس عيلان تقمصوا بحلى الملوك التي تتجلّى في مقابض السيوف التي تسقي هام المتمردين والعصاة؟.

فمـا مِنهُم إلا على الهَـوْلِ مُقْـدِمٍ　　كـذَاك عظيمُ القَوْم يَغْشى العَظَائِمـا
بَهَـاليـلُ لـم يـلْقـوك إلاَّ تـهـلَّلوا　　إليـكَ بُـدوراً واسْتَهلُّوا غَمَـائِمـا!
لهُم هِيم[1] ذلَّ الـزَّمـان بحُكمِهـا　　كـأنَّ على الأيـام مِنهـا حَزائِمـا!
إذا حـارَبـوا قَـوْمـاً تَـدلّـوا عليْهِمُ　　اجـادِلَ وانْسـابـوا إليـهم اراقِمـا
همُ القـومُ جابُـوا شمْسَ كـلِّ ظهيرةٍ　　مـلاءً، ولاثُـوا كـلَّ ليـلٍ غمـائِمـا
وهم أدَّبوا الهَيْجاء فـالسيفُ قد غَـدا　　بهم نـاثِراً، والـرُّمحُ قـد صار نـاظِما
إذا صـرَّحَتْ فيهـا المَنِيَّـةُ جَمْجَمـوا　　بسرِّ الظُّبى فـاستودَعـوه الجَماجِمـا!
وإنْ أحْجَمَ الأبـطالُ عَنهـا رأيتَهُـم　　قد اقتَحموا منها إلى المَوْت جـاحِما
[248] لـهـم عــزَمــاتٌ لــو بَــدَتْ فـتـجَـسَّـدَتْ
لَــكــانــتْ سُــيــوفــاً مُــرْهَــفــا صَــوارِمــا؟
ومُــرْهفــة كــادَت تَسِيــل فَلَمْ تَسِلْ　　أنَّــهــا ســالتْ لَـكــانتْ عَــزائِـمـا
وقــدْ ألِفـوا الأرْمــاحَ حتى لأوْشكت　　كُعُـوب القَنا أنْ يحسِبـوها مـراجِما!
مُدَثّرةً أطــرافُــهـا بـدِمـائِـهــا　　وقـد نقـدَتْ قبْـلَ الـطِّعـان دَراهِمـا
بُعِثْتُمْ لهــذا الخَـلْق أمْنـاً ورَحـمــةً　　على حين لم يَلقوا على الأرض راحِما!
وشـيَّــدْتـم أرْكــانَ دِيـنِ مـحـمَّـدٍ　　على حين لم تهْـدِم من الكُفر هـادِما
فــدُمْـتَ أميــر الـمؤمـنين مـؤيَّــداً　　على كـل من عاداك بـالقِسْطِ قائِمـا!
ورَثْتُم عن المَهْـديِّ نـوراً وحِكمــةً　　بهـا اختارَكَ الـرَّحمَنُ للناس حـاكِما
فــلَا زالتِ الآمـال من كــلِّ معشـرٍ　　تحثّ إلَيْكَ الـواجِداتُ الـرَّواسِمـا
ولا زِلـتُم تَـلْقــون في كــل شـارِقٍ　　بشِيـراً عَلَيْكم بـالفُتـوحـاتِ قــادِما

(1)كذا في الأصل بالياء، ويظهر أن الصواب همم.

ذكر اقلاع الشيخ المرحوم أبي حفص بعسكره المبارك من اشبيلية الى قرطبة بعد تيسير الله تعالى مدينة بطليوس، واستقراره فيها بمن وصل معه مبتدئاً في معاونة السيد أبي اسحاق ابراهيم بن الخليفة أمير المؤمنين على جهاد المحاربين.

قال الراوية: وإن الشيخ المرحوم لما وصل قرطبة واستقر بها زادت صلاحاً ونجاحاً، واغتباطاً وفلاحاً، وروع الله تعالى قلوب المحاربين المجاورين لقرطبة وقدح في نفوسهم من زيادة [249] الغلبة عليهم قداحاً. وتجلّى لابراهيم بن همشك في هذه المدة من نور الهدى ما اسرج له مصباحاً، ابصر به التَّوحيد صراحا.

توحيد[1] ابن همشك

قال المؤلف: وقد كانت الشحناء والعداوة والبغضاء ببركة هذا الأمر العزيز قد نشأت بينه وبين صهره أميره محمد بن سعد بن مردنيش سراً وإعلاناً، وخافه ابراهيم على نفسه فانقطع عن مواصلته وزيارته أزماناً. وزاده روعاً منه وفزعاً، قتله لابني الجذع[2] وزيريه، وبناهما في الحائط بمرأى منه

(1) يذكر ابن الآبار أن أعلاه أبي إسحاق ابن همشك بالدعوة المهدية ـ وهو ما يعني بالتوحيد هنا ـ كان سنة 562 بعد الوقيعة العظمى بفحص الجلاب على مقربة من مرسية بينما نرى ابن صاحب الصلاة يعد هذه الأخبار في أحداث أربع وستين وخمس مائة ولعله كان يعني اقتناعه بصفة علنية بالعودة إلى حظيرة الجماعة. . الحلة السيراء ص 230.

(2) لم نهتد بعد البحث الطويل لاسم هذين الوزيرين اللذين تعرضا لهذا المصير الرهيب، وكل الذي عرفناه أن أعصاب ابن مردنيش طغت عليه فأخرج أهل بلنسية منها، وأسكنهم بظاهرها ثم شحنها بالروم واتباعهم، وأنه اعتزم على أن يقوم بنفس العمل في غيْر بلنسية، وكان في جملة الذين خافوا ـ أبو بكر أحمد بن سفيان الذي دعا للموحدين هو كذلك.
الحلة السيراء ص 236.

وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطي[1] بالجُوع على ما ذكرته في التاريخ[2]، وطلَّق ابن مردنيش في هذه المدة ابنة[3] ابراهيم بن همشك طلاقاً بتلا. وبانت عن عصمته بياناً. وطردها إلى أبيها مهانة مستهانة باكية بدموعها إصراره وهجرانه، فغشيه من حديثها الكرب[4]، واتصلت في نفسه له الحرب، وداجاه مداجاةً يتراءى فيها كيف ينجلب له الطعن منه والضرب، فعند ذلك تطارح إبراهيم بن همشك المذكور بإرساله إلى الشيخ المرحوم أبي حفص بالتَّوحيد والتوبة، ورغب أن يصدق متابه بظهور النُّصح منه بتمكين الموحدين من بلاده بأوفى ود وطاعة ومحبة، وكرَّر خطابه بالوُصُول بنفسه [250] والانتاذ، من طاعة ابن مردنيش وموالات[5] الكفار، فوصل قرطبة إلى الشيخ المرحوم، وإلى السيد في شهر رمضان المعظم من عام أربعة وستين وخمس مائة والمؤرخ، فقبل في وصوله أحسن إلقبول، ورحب به، وألف قلبه بكل وعْد صادق من الخير مَأمُول، واجتمع معه أسرّ اجتماع، وعاهد الله تعالى بالْتِزَام الأمر العزيز المطاع، والدُّخول في حكم التَّوحيد بأكمل الإجماع، وأقر أنَّ الله تعالى هداه إلى المذهب الرشيد، وصحبة أهل التَّوحيد، وكتب إلى الخليفة

(1) هذا أبو عبد الله ابن صاحب الصلاة الغرناطي الذي كان في جملة العلماء المبرزين الذين تهافتت على إجازته في مروياته ومؤلفاته جماعة من أمثال عبد الله بن باديس الذي أخذ عن مشيخة اشبيلية قبل أن يأخذ العلم بمدينة فاس والذي كان في جملة شيوخ ابن الابار.
التكملة لكتاب الصلة ـ كوديرا ـ صفحة 513 رقم 1445.

(2) يقصد دون شك تاريخه المعنون بثورة المريدين، ونظراً لاختفاء هذا الكتاب الهام فقد حاولنا عبثاً أن نجد صدى لهذه الأخبار في الحلة السيراء التي اختصت ـ من بين سائر المؤلفات بنقولها عن ثورة المريدين، الحلة السيراء ص 230 - 236.

(3) يحكى أنها سئلت عن ولدها وإمكان صبرها عنه، فقالت: جرو كلب بن كلب لا حاجة لي به»!.
ومن المعلوم أنَّ ابن همشكا التجأ أخيراً إلى مكناس وبها توفي.

(4) كان قد ندم على ذلك وإظهاراً لغضبه، وانتقاماً من أبي جعفر أحمد الوقشي الشاعر الكاتب، عمد إلى رحى للوقشي بوجلة بلنسية فهدمها! مما دفع بالوقشي للقول:

ألا بلِّغا عنّي الشُّرَيْق وأهلَه ... بأني لا أثْني عناناً عنِ الغَرْب!
لأجلبها خزْر العيون ضوامراً ... واوطنها اجسادَكم بدلَ الترب

الأبيات. الحلة السيراء ص 231.

(5) كثيراً ما نجد الناسخ يتساهل في هذه التاء فيكتبها موالات عوض موالاة. . . .

أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنهم عن نفسه معلماً بمتابه، وأنه دخل في الطاعة رجاء العفو من الله تعالى وحسن ثوابه[1]، فجاوبه الأمر العالي[2] - أدامه الله - بتقريبه واستجلابه، والجزاء الأوفى على حسن منابه، واتصلت البلاد التي كانت بيده ببلاد الموحدين وأمنت من الفتنة الطرق والرفاق، وارتفع في تلك النواحي الفرق والنفاق. وكتب السيد أبو اسحق بن الخليفة - رضي الله عنه - إلى الأشياخ والحفاظ بالبلاد معلماً بحاله وإقباله، فمن ذلك ما خاطب به إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم الوالي باغرناطة في ذلك التاريخ، وهي من إنشاء ابن مصادق[3]:

[251] بسم الله الرحمن الرَّحيم صلَّى الله على محمَّد وآله وسلم الشيخُ الأجل الحافظ الأعلى وليُّنا في الله تعالى أبو عبد الله محمد بن أبي إبراهيم أدام الله عزّه وكرامته بتقواه، وليُكم في الله تعالى إبراهيم بن أمير المؤمنين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بَعْدَ حمْدِ الله على ما أولى ومنح، والصلاةُ على محمد نبيه الذي تبيَّن به دينُ القيمة ووضح، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مُعيد دين الله بعْدَ ما عفى رسمه ومصَحَ، والدُّعا لسيدِنا أمير المؤمنين خليفتِه الذي طهَّر بعَدْلِه البلاد

---

(1) لا شك أن رسوله إلى مراكش كان هو وزيره الأسبق أبا جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشي، فلقد تحدث ابن الابار عن وفادة هذه الشخصية على مدينة مراكش في عيد الفطر من سنة 564، وأنه تقدم بقصيدة تهنئةٍ طويلة يقول فيها:

تَحِنُّ إلَيكم وافداتُ المواسمِ   فتهدي إلى كفيكم ثغرَ باسِم
ومنهنَّ عيدُ الفطر جاء مسلماً   عليْكَ فحيَّى منك افضلَ طاعم
ومن قبله وافى الصيامُ بشهْره   على خيْر اواب وافْضَلِ صائم

إلى أن يقول:

تقبلت أخلاق الكهولة ناشِئاً   فلم تدْرِ يوماً ما مَناط التَّمائم
ولو لم تشأ وطْءَ التُّراب باخمصٍ   لسرت على هَامِ المُلوك الخَضارِمِ!

المصدر السابق...

(2) لا ننسى أن نذكر أن الخليفة الموحدي بعث في هذا التاريخ بالذات برسالة لابن مردنيش يطلب إليه أن يفيء هو كذلك إلى الله.. بروفنصال، رسائل موحدية الرسالة رقم 25 ص 141.

(3) ابن مصادق ورد ذكره لأول مرة وآخر مرة في هذا المجلد من كتاب المن بالإمامة.

وفَتَح، ولسيِّدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الذي أثمر سعيُه وأنجح، وكمَّل بيُمْن خلافته الأمُور الدينية وأصلح، فكتبناه إليكم أدام الله كرامَتكم بتَقْواه من قرطبة حرسَها الله ولا جَديد إلَّا ما عوَّد الله بركة هذا الأمْر العزيز من فتح لا تزال تُفتح أبوابه، وتتَّصل أسبابُه، وترفع قبابُه، ويتعرَّف مع كلِّ حِين انْهِلالُ مائِه وانسكابُه. والحمدُ لله على ذلك حمداً كثيراً يصفو به سربالُ إحْسانِه وجلبابُه، وإنَّ من النعم الَّتي ببركة هذا الأمْرِ العزيز وَالَى جَدِيدَها، واقْتَضى بسعادتِه مزيدَها، واتْبع بطريفِها تليدَها، وأنْجَز فيها لأولياء الأمر العزيز المَوعُود، ووافقَهُم فيها الجد المصحب المسعَّد، وإن الشيخ أبا اسحاق ابراهيم بن همشك وفَّقه الله كُشِف له عن وجه هداه، وحُلِّي عن مَوارِدِ [252] رَدَاه، وتبيَّن له أن هذا الأمرَ العزيزَ هو المَركبُ المُنْجِي، السَّائقُ إلى السعادةِ الباقية المُزجي، الذي لا يؤخِّر عِثَار من صدف عنه ولا يُرْجِي، فبادَرَ الى الدّخُول فيه بِدَارَ من خلُصَتْ سَرائِره، وطُويتْ على مودَّتِهِ ضمائرُه، ورَأى أنَّ ذلك تُمْحَى به خَطاياه، وتُغْفَر جَرايِرُه، وأذاع الدَّعوةَ المهدية في جَميع بلادِه وأعلن بِهَا، وأبْدَى الاعتلاق بعِصمتِها، والتَّمسُّكَ بسببِها، ولَقِيَ الموحِّدين - أيَّدَهُم الله بتَقْواه - ملاقاةَ اللَّائذِ بظِلِّهم، المُستمسك بحَبْلِهم، المُسْتَنيم المُسْتَسْلِم، المنطوي على الولاء الأخْلَص والودّ الأسلم، والحمدُ لله على ذلك حمْداً تتوالى بِهِ فتوحُه، ويتَّصِل به مبذولُ إحْسانِه ومَمْنُوحُه، وخاطبْناكم بذلك، أدامَ الله كرامتَكم لتجدِّدوا شُكر الله تعالى على ما أسْبغ من نعمِه وأوْلى، وتسلكوا منه سبيلاً يكون أحْرى بازْديادِها ما منَّ بها وَوالى، والله تعالى يُوالي لدَيْكم الاءه، ويُسبِغ عليْكم ظاهرةً وباطنةً نُعْماه والسلام الأتمُّ عليكم ورحمةُ الله تعالى وبَرَكاتُه. كُتِبَ في شهْر رمضانَ المعظَّم عامَ أرْبعةٍ وستين وخمْس مائة.

تعيين الحافظ أبي يحيى والياً على مدينة بطليوس وحروبه مع جرانده

وفي هذه السنة، مدة إقامة الشيخ المرحوم أبي حفص بقرطبة، توجه ابنه الحافظ الأسنى أبو يحيى والياً إلى مدينة بطليوس، عن الأمر العالي -